وقفات

مع أحاديث الإسراء

الدكتور : همام عبد الرحيم سعيد
الاستاذ المساعد بكلية الشريعة

جاءت أحاديث قصة الاسراء والمعراج متفاوتة في الاختصار والتفصيل والاقتصار على احدى الحادثتين أو الجمع بينهما، وذلك بحسب مقصد الراوي أو صاحب الكتاب من الرواية.

وقد روى الحديث البخاري ومسلم، ذكره في مواضع الحديث حتى ذكره في سبعة عشر موضعا. وتدور معظم الروايات على أنس بن مالك الذي يرويها مباشرة تارة وطورا عن أبي ذر، وأخرى عن مالك بن صعصعة. وسنحاول الوقوف على بعض معاني الحديث وأسراره، وذلك فيما يلي:

الإعداد للرحلة:

مما لا ريب فيه أن رحلة الاسراء والمعراج نقلة بعيدة في المكان بين مكة وبيت المقدس وبين الأرض وسدرة المنتهى، حيثُ يسمع صريف الاقلام. وحيث تنتهي الملائكة فلا تتقدم بعدئذ. ولما كان البشر لا يقوى على هذه النقلة الهائلة فقد شاء الله تعالى أن يعدّ نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ للاسراء والمعراج كما

أعده منذ صغره يوم أن كان مسترضعا في بني سعد، فكانت حادثة شق الصدر واستخراج علقة هي حَظُّ الشيطان ووساوسه وهواجسه لكي تخلص السريرة وينقى القلب.

وقد جمع أنس ــ رضي الله عنه ــ بين حادثتين من حوادث شق الصدر لما بينهما من تشابه في الحدث مع اختلاف الغاية. فقد روى شريك بن عبد الله بن أبي نمر، قال: «سمعت أنس بن مالك يحدثنا عن ليلة أسرى بالنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ من مسجد الكعبة جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه ــ وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم. وقال آخر: خذوا خيرهم، فكانت تلك. فلم يرهم حتى جاءوا ليلة أخرى فيما يرى قلبه، والنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ نائمة عيناه، ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فتولاه جبريل»(١). وقد تكون المرة الاولى المذكورة هنا في الحديث قبل البعثة مباشرة، يقول ابن حجر: «وثبت شق الصدر أيضا عند البعثة، كما أخرجه أبو نعيم في «الدلائل»(٢) وبذلك يكون شق الصدر قد حدث ثلاث مرات الأولى في بني سعد وهو صغير، والثانية قبل أن يوحى اليه، والثالثة ليلة أسري به ــ صلى الله عليه وسلم.

تفاصيل هذه الحادثة :

أخرج البخاري وغيره من طريق قتادة عن أنس بن مالك بن صعصعة أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال: بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان، إذ أقبل أحد الثلاثة بين الرجلين فأتيت بطست من ذهب ملآن حكمة وايمانا، فشق من النحر الى مَراقّ البطن، فغسل القلب بماء زمزم ثم مُلئ حكمة وايمانا. «وفي رواية شريك عن أنس: فحشى به صدره ولغاديده، يعني عروق حلقه ثم أطبقه».

ونجد في هذه الرواية أن جبريل عليه السلام قد شق بطن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وصدره، ثم حشاه بالحكمة والايمان وحتى عروق حلقه حشاها بذلك، ثم أطبقه، وذلك استعداداً للرحلة العظيمة الواسعة الشاسعة التي يخترق فيها النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ السماوات، ويتنقل بين الكثافات وينتقل من عالم الشهادة الى عالم الغيب، وهي نقلة لا يقوى البشر عليها لما فيها من العظائم، والعجائب. واذا كان رائد الفضاء لا يصعد الى الفضاء القريب إلاّ بعد إعداد وتهيئة نفسية وجسمية، وبعد تزويده باللباس المناسب والأوكسجين مع أنه لم يخرج من دائرة هذا الكون القريب. فكيف برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو الذي ــ بفضل ربه ــ يرى ما لم تره عين ويسمع ما لم تسمعه أذن أحد من البشر. لذلك كانت تلك المعالجة في صدره وتكوينه حتى لغاديده «عروق حلقه».

الاسراء قبل المعراج:

لقد دار جدل بين العلماء حول اتصال المعراج بالاسراء أو انفصالها في الزمان، وقد

١ ــ أخرجه البخاري: الجامع الصحيح، بهامش فتح الباري ٥٧٩/٦، ومسلم ١٤٨/١.

٢ ــ فتح الباري ٢٠٤/٧ .

نظر بعضهم الى الروايات التي تفرق بينها. ولكن وردت روايات صحيحة تحسم الجدل وتبيّن اتصال الحادثتين ببعضهما، من ذلك رواية الامام مسلم، والامام أحمد من طرق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس ــ وهذا سند صحيح ــ وقد بينت هذه الرواية أن الاسراء سبق المعراج وكان المعراج من بيت المقدس، بعد أن أسري بالنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وصلى ركعتين في المسجد الأقصى. وإذا كانت الرحلة الى السماء مرت عن طريق بيت المقدس فإن هذا يعني أن معراج الأنبياء من الأرض الى السماء هو في بيت المقدس. ولا سيما وأن التاريخ البشري قد عرف رحلتين بشريتين الى السماء، رحلة عيسى عليه السلام، عندما رفعه الله تعالى اليه، ومعراج محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكون القدس معراج الأنبياء يجعلها ذات مكانة مباركة لأنها مدخل السماء، وهذا دليل مؤشر على عظمتها وقدسيتها.

النيل والفرات:

ومن الأمور التي شاهدها النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ في هذه الرحلة النهرين الظاهرين والنهرين الباطنين، أخرج البخاري وغيره حديث المعراج الطويل، وفيه: واذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات(٣). وفي رواية شريك عن أنس: «النيل والفرات عنصرهما».

قال الامام النووي: «في هذا الحديث أن أصل النيل والفرات من الجنة، وأنهما يخرجان من أصل سدرة المنتهى، ثم يسيران حيث شاء الله، ثم ينزلان الى الأرض، ثم يسيران فيها ثم يخرجان منها. وهذا لا يمنعه العقل، وقد شهد به ظاهر الخبر فليعتمد»(٤).

يقول ابن حجر ــ رحمه الله ــ «والحاصل أن أصلها ــ سدرة المنتهى ــ في الجنة، وهما يخرجان أولا من أصلها، ثم يسيران الى أن يستقرا في الأرض ثم ينبعان، واستدل به على فضيلة ماء النيل والفرات لكونها منبعها من الجنة. وكذا سيحان وجيحان، قال القرطبي: لعلّ ترك ذكرهما في حديث الاسراء لكونها ليسا أصلا برأسهما، وانما يحتمل أن يتفرعا عن النيل والفرات»(٥).

رواية شريك تحل الإشكال:

وما جاء في رواية شريك عن أنس: «النيل والفرات عنصرهما»(٦): يدل على ان النهرين الظاهرين ليسا هما النيل والفرات. وانما النيل والفرات من عنصرهما. وهذا يعني أن مادتها من جنس مادة النيل والفرات. وان تركيب المياه واحد. لأن النهرين الباطنين يختلفان عنها في المادة والتكوين. وبذلك لا

٣ ــ البخاري بهامش فتح الباري ٢٠٢/٧ .

٤ ــ المنهاج شرح صحيح مسلم ٢٢٥/٢ .

٥ ــ فتح الباري ٢١٤/٧ .

٦ ــ البخاري ــ بهامش فتح الباري ــ ٤٠١/١٣ .

يكون النهران هما النيل والفرات نفسها، ولا نحتاج عندئذ الى قول النووي ـ رحمه الله ـ وانها ينبعان من الجنة وينزلان الى الأرض. بل نقول: إن مادة النيل والفرات المعرفين من جنس مادة ذينك النهرين.

العلاقة بين النيل والفرات والاسراء:

وما ذهبت اليه من البيان والتفسير يفهم في ضوء الحقيقة التالية:

ان حادثة الاسراء تنقل الأمانة والمسؤولية من بني اسرائيل الى أمة الاسلام، ومن عناصر الميراث القدس والمسجد الأقصى والنيل والفرات وما بينها من الأرض على وجه الخصوص. فينتهي بذلك دور بني اسرائيل الى الأبد. ولكن بني اسرائيل ـ اليهود ـ يزعمون أن ارض اسرائيل من الفرات الى النيل وأن هذه الأرض ميراث لهم خالد الى يوم الدين. فأراد الله تعالى أن يرى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنصر هذين النهرين ليلة المعراج، ليقول له يا محمد إن النيل والفرات نهران اسلاميان والأرض التي بينها ملك لأمة الاسلام، وأمة الاسلام هي الحفيظة عليها والمسؤولة عنها وليس اليهود. وكذلك الحال بالنسبة للأقصى والقدس فهما رمزان اسلاميان. وعليه فلا داعي للبحث في منشأ النيل والفرات ومنبعها وانما نبحث في مسؤولية الأمة عنها. واذا عرفنا اليوم أن مشكلة اليهود الرئيسية هي مشكلة المياه، وأنهم يمدون أعينهم الى مياه النيل والفرات لاستكمال مخططات الاستيطان، وأنهم سيحاولون الوصول اليها لرفد الدولة المسخ المغتصبة بأسباب الحياة، فاننا سندرك معنى ورود ذكر النيل والفرات في هذه الحادثة العظيمة.

ان هذا النص يُحمل المسلمين مسؤولية الحفاظ على هذه الأرض ويربط بين الماضي والحاضر، ويقول للأمة: احرصي على ارضك ومياهك وأنهارك ولا يكون الحرص ذا معنى ومجدياً إلاّ بالوقوف على أسرار الاسراء والمعراج والا باتباع كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

يارب

دعاء

اللهم انى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى وتجمع بها شملى وترد بها الفتن عنى وتصلح بها دينى وتحفظ بها غائبى وترفع بها شاهدى وتزكى بها عملى وتبيض بها وجهى وتلهمنى بها رشدى وتعصمنى بها من كل سوء .